الفصل الرابع

المصادر الأصلية والمراجع
ودورهما في الكتابة التاريخية

المصادر والمراجع هى المعين العلمى الذى يستمد منه الباحث معلوماته فى كتابة بحثه . ومن الناحية اللغوية ايس بين المصدر والمرجع فرق كبير ، فالاشتقاق اللغوى لكلمة المصدر الفعل صدر بمعنى رجع ، والاشتقاق اللغوى من كلمة المرجع الفعل رجع .

وتنقسم مصادر البحث التاريخى الى نوعين أصلى وثانوى وكلاهما يفيد فى اعطاء الباحث فكرة عامة عن العصر الذى يكون موضوع البحث جزءا منه ، وينحصر المصدر الأصلى فى شهادة شهود العيان التى يسجلها اشخاص كانوا موجودين خلال وقوع الحدث أو مشاركين ايجابيين فيه ، أو جماعة . فالوثيقة التاريخية يمكن أن تندرج تحت المصادر الأصلية التاريخية الحكومية والرسمية للمؤسسات المختلفة والآثار الباقية من فرد أو جماعة . فالوثيقة التاريخية يمكن أن تندرج تحت المصادر الأصلية لأنها تحمل فى معظم الأحيان افكارا جديدة وخلاقه ، ولأنها غالبا ما تكون على حالتها لم تحور أو تبدل ولأن نصها هو النص المعترف به وبمقدار قرب وقت تدوينه من وقت وقوع الحادث تكون قيمته التاريخية ، والى جانب ذلك فالوثيقة التاريخية لا تحدثنا عن الحوادث وآراء كاتبها فحسب بل تحتوى على عناصر تاريخية تختلف طبيعتها ، من لغة واسلوب ، وعادات ووصف جغرافى ، وغير ذلك من الأمور ، والى جانب ذلك فهناك الرسائل الشخصية واليوميات والمذكرات السياسية .

أما المصادر الثانوية فهى غالبا التى تنقل عن المصادر الأصلية ولعلنا نشير هنا الى أن بعض المصادر قد تكون أصلية فى بعض الدراسات

وثانوية فى البعض الآخر ، فالصحف اليومية مثلا تعد محدودة القيمة فى بعض الأحيان الا انها تعد مصدرا أصليا فى بحث عن واقع المجتمع أو عن الأفكار الشائعة فيه فى فترة تاريخية معينة .

وفيما يلى نعرض لأهم مصادر البحث التاريخى .

أولا — المصادر الأصلية :

١ — الوثائق Documents

الوثائق بالنسبة للكتابة التاريخية تعد بمثابة الوقود الذى يحتاج اليه المحرك لتادية وظيفته وخاصة أن الطريقة الحديثة فى كتابة التاريخ تعتمد على نشر الوثائق وتمحيصها لأنها بمثابة اب التاريخ فالمؤرخ لا يستطيع التعرف على الماضى مباشرة الا من خلال الآثار التى خلفها وراءه ، وكتابة التاريخ الصحيحة لا تبدأ الا حين تكون وثائقه واضحة ، وجديرة بالثقة وخاصة أن كثيرا من المشكلات التى قد يثيرها المؤرخ والأسئلة التى يطرحها تظل بدون فاعلية أو اجابة اذا لم تتوفر الوثائق الكاملة للرد عليها . ومن هنا فان الوثيقة تظل المصدر الأول لكتابة التاريخ ، وبدونها يصعب على المؤرخ كتابة التاريخ الصحيح .

وفى التاريخ الحديث آلاف السجلات والملفات الخاصة بالحكام والوزارات والجيوش والمحافل والقضاة والأطباء والمؤسسات الاجتماعية وغيرها وكلها حافلة بالوثائق المهمة .

والوثائق نوعان غير منشورة ومنشورة . والوثائق غير المنشورة ذات فائدة كبيرة للتاريخ لأنه لو أزيح عنها الستار لأفادت فى حل الكثير من الالغاز المحيرة .

أما الوثائق المنشورة فهى التى قامت بعض الجهات الرسمية أو المؤسسات العلمية بنشرها بهدف ارشاد الباحثين الى موضوعا تمعينة .

وعلى الرغم من صعوبة قراءة الوثائق غير المنشورة فى كثير من الأحيان ، فينبغى أن يتعود الباحث على ما فيها من صعوبات فى اللغة

والأسلوب ، وأن يتدرب على قراءة نصوص هذه الوثائق سواء باللغة العربية أو غيرها .

وعلى الرغم من أهمية الوثائق فينبغى التعرف على مدى أصالة الوثيقة موضوع الدراسة ، ومدى مكانة كاتبها خلال فترة كتابتها ، والى أى مدى توافرت له امكانات التسجيل الصحيح لها ، ومدى صلته بما عرض له من وقائع من حيث التحيز لفريق دون غيره أو من حيث الموضوعية فى عرضه لوثائع . ويجب الا يعتمد الباحث على وثيقة واحدة فى دراسة موضوع معين مهما تكن قيمتها بل يجب الرجوع الى وثائق متعددة ، ومن مصادر مختلفة حول موضوع دراسته حتى يتأكد من سلامة القرار الذى اتخذه أو الرأى الذى يبديه .

٢ ــ الرسائل الشخصية : Personal Letters

توضع فى مرتبة عالية من مراتب الوثوق بدورها اذا كانت تلقائية وخالصة ، وصادرة من أحد صناع القرار أو من الرحالة أو غيرهم ، ولكن مما يؤخذ عليها فى كثير من الأحيان تدخل الاعتبارات الشخصية فى صبغ بعض الحقائق بصيغة خاصة ، ومن هنا تقع فى مرتبة أدنى اذا نظر اليها على أنها شاهد يقارن بالوثائق من الأنواع الأخرى ، يضاف الى ذلك أنها تحتاج من المؤرخ الى تمحيص وحذر .

٣ ــ اليوميات : Diaries

هى لون من الوثائق ، ولعلها أكثر امتاعا من الناحية الفنية وتكاملا من الناحية الموضوعية لكونها تلقائية وخالصة ، وبعيدة عن قيود المكاتبات الرسمية وأكثر قربا والصق بالأحداث التى تصفها ، ولكونها أيضا بنت ساعتها أو بنت يومها تسجل أحداث النفس البشرية بدقائقها وصغائرها من خلال النظرة الذاتية وهذا يجعلها فى مرتبة عالية بين المصادر التاريخية ، وخاصة انها تسد الكثير من الفجوات التى يحدثها مر الزمن ، ولا تتوافر اجابات لها يستطيع أن يحفظها التاريخ .

ومن أبرز هذا اللون من الكتابات « يوميات هيروشيما » و « يوميات

نائب فى الأرياف » ففى الموضوع الأول يسجل الكاتب انطباعاته عن أول قنبلة ذرية القيت على هيروشيما موضحا حالة النفس البشرية خلال ضعفها وعجزها ، ومبرزا الأمل الذى يتعلق به الانسان دائما .

اما فى الموضوع الثانى فيسجل الحكيم سيرته بما فيها من تناقض واتزان ، ومع ان ما كتبه قد أبعده عن طبيعة اليوميات الى حد ما فقد صور البيئة الريفية التى عاش فيها والشخصيات التى قابلها بعينه اللاقطة وقلمه الجذاب بدرجة يصعب على المؤرخ أن يجدها فى اى وثيقة أخرى معاصرة يضاف الى ذلك أن هناك بعض الكتابات تحمل عنوان اليوميات ، وهى أقرب الى المذكرات Memoir أو الذكريات منها الى اليوميات .

ومع أن المذكرات السياسية لم تتأصل كتابتها حتى وقت قريب بين الموجود فى المذكرات ، كما أنها كثيرا ما تحتوى على أشياء سطحية فى الحياة قد تكون مكررة فانها غالبا ما تكشف الكثير من طبائع كتابها ، وخاصة أنها تسجيل دقيق لتطور شخصيتهم فى حركتها وانفعالاتها وأحاسيسها الداخلية أيضا .

ومما يخشى عليه فى اليوميات أنها تكون دائما عرضة للتلف أو التحوير وخاصة اذا كانت تتناول بعض الأمور السياسية التى تراها بعض الحكومات خطرا عليها .

٤ — المذكرات السياسية : Memoirs

ومع أن المذكرات السياسية لم تتأصل كتابتها حتى وقت قريب بين زعمائنا فقد ظهرت مذكرات لبعض الساسة المصريين على مستوى كبير من الاهمية ، كما سمعنا عن مذكرات آخرين ولا ندرى من أمرها شيئا . اما المذكرات السياسية التى كتبها اشخاص شاركوا فى صنع تاريخ مصر أو كانوا شهود عيان له فهى عديدة وتم نشر معظمها بعد تحقيقه والقليل منها لا يزال بين الدهاليز ، وأهم هذه المذكرات مذكرات أحمد عرابى ومصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وسعد زغلول ، ومحمد على علوية ، وفتح الله بركات ، وابراهيم الهلباوى ، وعبد الرحمن فهمى ، والخديو

عباس الثانى ، وأحمد شفيق ، وأحمد لطفى السيد ، وعبد الرحمن الرافعى ، ومحمد كامل سليم ، وابراهيم طلعت ، وعبد العزيز فهمى ، واسماعيل صدقى ، وأحمد حسين ، ومحمد حسين هيكل ، ومحمد نجيب وغيرهم .

ومع أن الكثير مما وصف بأنه مذكرات هو فى الواقع أقرب للتقارير منه الى المذكرات ، وخاصة أن شرط المذكرات هو أن يتم تصوير الحادث عند وقوعه أو الرأى عند تكوينه ، أما اذا تمت استعادته بعد انقضاء زمن بين وقوع الحادث وتذكره فقد يتأثر ذلك بحالة الكاتب النفسية وقت الكتابة وهذا يؤدى الى تغيير بعض النتائج التى ترتبت على الحادث ، وذلك يمكن أن نصفه بأنه أقرب للتاريخ منه للمذكرات ، ومن هنا فانه يمكن مثلا نقل مذكرات الدكتور محمد حسين هيكل [١] من باب المذكرات الى باب التاريخ [٢] .

وترجع أهمية المذكرات الى أنها تتناول تجربة الانسان الشخصية وأعماله وآراءه التى قد يتحرج عن الافصاح عنها والاعتراف بها فى ظرف معين ، فهى تشمل كل ما روى أو دون من وقائع بهذه الصفة .

ومن هنا تتحدد أهمية هذه المذكرات فهى تكشف عادة عن مستور يتصل بذات صاحبها بالدرجة الأولى [٣] . وأبرز الأمثلة على ذلك مذكرات سعد زغلول . ومما يؤخذ على المذكرات بصفة عامة أنها تكتب تحت تأثير نفسى معين بالاضافة الى ما تتضمنه أحيانا من بعض التفاصيل غير الصحيحة والمبالغ فيها فى بعض الجوانب لدرجة أن الباحث أحيانا يقرأ مذكرات لكاتب معين وأخرى لكاتب آخر عن حوادث متماثلة ذات صلة بأناس تناولتهم تلك المذكرات

---

(١) نشرت تحت عنوان : مذكرات فى السياسة المصرية .

(٢) محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية حـ ١ ، القاهرة النهضة المصرية ١٩٥٢ ص ١٢ .

(٣) عبد العظيم رمضان : المذكرات السياسية وأهميتها فى تاريخ مصر المعاصر ، دراسة غير منشورة ضمن الأسبوع العلمى الثانى لسمنار التاريخ الحديث بجامعة عين شمس ص ٥ — ٦ .

بالحديث فيجد تضاربا حول ما يتعلق بتلك الحوادث أو بعضها [٤] يضاف الى ذلك أن بعض المذكرات التى تم نشرها لم يلتزم فيها أصحابها بالموضوعية ، ولم يتعرضوا فيها لأخطائهم ومخاطراتهم الفاشلة فمثلا نجد انه على الرغم من أن مذكرات ونستون تشرشل عن الحرب العالمية الثانية قد امتعت بنى جلدته الانجليز فانها ادت الى ارتفاع أسوات الاحتجاج ضد كاتبها فى أمريكا وفرنسا وبلجيكا وغيرها من البلدان المشتركة فى الحرب بحجة أنها لم تنصف الحقائق دائما . يضاف الى ذلك اننا نجد فى المذكرات السياسية غالبا دفاعا عن النفس وتزكية لها ، وتبريرا لأخطائها ورد نقائصها الى فضائل ومناقب ، فالضعف يتحول الى انكار للذات ، والحبن يصبح تسامحا يقابل الاساءة بالمغفرة ، والتقلب بين المذاهب والمبادىء يصير حرصا على الصالح العام .

ولعل طوفان المذكرات السياسية الذى ظهر فى الآونة الاخيرة بمصر اقوى دليل على ذلك ، ومع كل هذا ففى المذكرات غالبا ما تتسرب بعض الاعترافات من حيث لا يدرى كاتبها وخير مثال على ذلك مذكرات محمد فريد ، ومذكرات سعد زغلول . فالحديث عن المذكرات تؤدى أحيانا الى الدخول فى دهاليز الذات التى كثيرا ما تكون من الخفايا التى يحرص الانسان على اسدال الستار عليها [٥] .

وعلى كل حال فكلما كان اسلوب المذكرات اقرب الى الحقيقة والواقع كلما كان أكثر قابلية للاعتراف به عن الأسلوب الذى يحمل الطابع الانشائى أو البلاغى .

٥ — اللقاءات الشخصية :

يسعى بعض الباحثين الى اجراء لقاءات مع بعض الشخصيات ذات التأثير فى بعض الأحداث فى فترة معينة وقد يخرج هؤلاء فى كثير من الأحيان بانطباعات كان يصعب الحصول عليها من بطون الكتب أو الوثائق ، ومع

---

(٤) العرب : عدد ديسمبر / يناير ١٩٩١ تحت عنوان « كلمة عن التاريخ والمؤرخين » ص ٧٢٧ .

(٥) العربى : ربيع الآخر ١٤٠٨ هـ ص ٣٠ — ٣١ .

ذلك فان مهمة الباحث قد تكون شاقة فى اثناء غربلته لهذه القـــاءات واستخلاص المعلـــومات منهـــا ، ومقارنتها بأقوال آخرين عاصروا هـــذه الفتـــرة .

ثانيا : المراجع :

اما عن المراجع فانها تعين الباحث على تكوين فكرة عامة عمن سبقه فى كتابة بحثه ، وتحيله الى المراجع التى اعتمد عليها حتى لا يضيع وقته فى شىء سبقه اليه الآخرون ، وحتى يبدأ من حيث انتهوا .

فالباحث الجيد هو الذى يتتبع المسألة او الفكرة الواحدة فى بعض الكتب الجيدة ، مع التعرف على الكتب التى اعتمد عليها أولئك لكى يدرك كيف نمت هذه الفكرة وتطورت ، وكيف عالجها الباحثون الآخرون .

وبهذه المقارنة يستطيع الباحث أن يتعرف على أوجه القـــوة ، وأوجه الضعف ، وتعينه على الوصول الى تحديد المسائل الجديرة بالدراســـــة والتحليل .